الفـــن

للكاتب الفرنسي بول هيزيل

بقلم الدكتور محمد بهجت

— ٢ —

الواقعية في الفن Realism in arl

في نهاية شارع الجامعة الطويل، وقريباً من الشان دي مارس Champ de mars يوجد «مخزن الرخام» في ركن منعزل مهجور يشعرك بأنك في الريف. في فناء هذا المخزن الذي تكسوه الأعشاب ترقد قطع رخامية غبراء ثقيلة مبعثرة، تبدو في مواضع منها كسور حديثة العهد تنم عن بياض ناصع. تلك هي أحجار الرخام التي احتفظت بها الدولة للمثالين الذين تشرفهم بعمل تماثيل لها.

ويقوم إلى جانب من هذا الفناء عدة مراسم خصصتها الدولة لمختلف المثالين، تبدو كأنها مساكن للطلبة من طراز جديد، وهي بمثابة مدينة صغيرة للفنانين، يجللها هدوء عجيب. يشغل رودان مرسمين من تلك المراسم، يعمل في واحد منها ويضع في الآخر سباتك الجص لقطعته المعروفة «باب جهنم»، تلك القطعة التي تسبي العقول برغم أنها لم تكتمل بعد.

ولقد اعتدت أن أزوره هنا أكثر من مرة في آخر النهار، عند ما يوشك أن ينفض يده من عمله اليومي. فكنت أجلس على كرسي وأرقبه وهو يعمل، وأرتقب تلك اللحظة التي يرغمه فيها الظلام على الكف عن العمل، ولكن كان حرصه على الإنتفاع بآخر شعاع من أشعة النهار يلهب أعصابه ويصيره كالمحموم.

وهأنذا أراه يسوي ويشكل تماثيله الصغيرة من الطين بسرعة خاطفة. وهو يجد في ذلك ضربا من التلهي والتسلي يجنح اليه في الفترات التي تتخلل عمله الوئيد الذي يبذله في صنع التماثيل الكبيرة. ثم انه يجد في تلك الدراسات العجلى التي تؤدي للتو واللحظة متاعا ولذة لأنها تعينه على امتساك حركة رشيقة أو إيماءة جميلة عابرة، قد لا يتاح لصدقها الآتي أن يُدرس دراسة عميقة طويلة.

أما طريقته في العمل ففريدة في بابها. فترى في مرسمه كثيراً من المثل الآدمية العارية تمشي الهوينا أو تستريح، يؤجرهم رودان لكي يرى فيهم الجسم العاري يتحرك بكل ما في الحياة من حرية، فهو يلاحظهم في غير انقطاع؛ وبذلك أمكنه أن يلم برؤية العضلات في حركاتها وسكناتها. إن الجسد العاري الذي نعتبره نحن المحدثين علانية شاذة، والذي لا يرى فيه المثالون إلا طيفاً لا يدوم لأكثر من جلسة أصبح منظراً مألوفا لدى رودان.

وإن الدراية المستمرة بالجسم الإنساني. تلك الدراية التي اكتسبها قدماء الإغريق من ملاحظة الألعاب الرياضية كالمصارعة ورماية القرص والملاكمة وغيرها من صنوف الألعاب الرياضية، والتي أباحت لفنانيهم أن يتكلموا بحرية عن الجسد العاري اكتسبها صانع «المفكر» أو رودان بجعل الآدميين العرايا يذهبون ويجيئون أمام عينيه باستمرار. وبذلك استطاع أن يستكنه المشاعر التي تعبر عنها كل هنة من هنات الجسد. ويعتبر الوجه عادة المرآة الوحيدة التي نرى فيها النفس، كما يبدو لنا أن تحرك أعضاء الوجه هو الظهر الخارجي الوحيد للروح. وفي حقيقة الأمر الواقع أنه لا توجد عضلة من عضلات الجسم لا تعبر عن التغيرات التي تطرأ على الشعور الداخلي، كلها تعبر عن فرح أو حزن، عن يأس أو أمل، عن تعقل أو جنون. إن الذراع المنبسطة أو الجسم المسترخي ليبسم في رقة وحلاوة مثلما تبسم الشفاه أو العيون، ولكي يصبح المرء قادراً على تفسير كل خلجة من خلجات اللحم وجب عليه أن يوطن نفسه على قراءة ذلك الكتاب البديع — وهذا ما فعله أساطين الفن الأقدمون، وساعدتهم عليه ظروف مدنيتهم. أما رودان فقد توصل إليه في عصرنا هذا بقوة إرادته الخاصة. إنه يتبع مثله بنظراته الفاحصة النهمة ويتنسم في هدوء روح الحياة التي تختلج فيهم، ويعجب بطرواة هذه الفتاة التي تنحني لتلتقط إزميلا[1]، أو بجمال أخرى ترفع ذراعيها لتصفف شعرها الذهبي فوق رأسها، أو بخطران شاب يمشي عبر الغرفة، وعندما يأتي هذا أو ذاك بحركة أو وضع يروقه يطلب منه تواً أن يستبقي ذلك

(١) شفرة الحذاء.

الوضع ثم يهوى إلى طينه ويعمل بسرعة فلا يلبث أن يخرج تمثالا صغيراً إلى الوجود ، ثم ينتقل بنفس السرعة إلى غيره يشكله ويسويه بالطريقة ذاتها .

وفى إحدى الأمسيات ، عند ما أخذ الليل يرخى سدوله الكثيفة على مرسمه جرى لى حديث مع المعلم عن طريقته بدأته بقولى :

« إن ما يدهشنى منك أنك لا تشتغل على وتيرة أقرانك . إنى لأعرف الكثير منهم وقد رأيتهم يعملون ، فهم يجعلون المثال يعتلى خشبة تسمى العرش ويأمرونه بأن يتخذ كذا أو كذا من الأوضاع ، وفى العادة يثنون أو يبسطون ذراعيه ورجليه حسبما يروق لهم ، ويحنون رأسه أو يمددون جسمه كما لو كان ننتا من بنات[1] الأطفال؛ ثم يشرعون بعد ذلك فى العمل . أما أنت فعلى النقيض من ذلك ، تنتظر حتى يأخذ مثالك وضعاً من الأوضاع التى تروقك فتقوم بانتساخه حتى لكأنك أنت الذى تأمر بأمرهم وليسوا هم الذين يدلون على أمرك » .

وكان رودان متشاغلا بلف نماذجه الصغيرة بلفائف مبللة فأجابنى فى هدوء .

« أنا لست رهين أمرهم وإنما أنصاع لأوامر الطبيعة ، أما زملائى فلهم ولا ريب أسبابهم التى تدعوهم إلى الاشتغال على النحو الذى ذكرت ، ولكن اعتسافهم الطبيعة على هذا النحو ومعاملتهم الإنسان معاملة الدمى تجعلهم يخاطرون بإنتاج تماثيل متكلفة لا تنبض بالحياة ، أما أنا الذى ينشد الحقيقة ويدرس الحياة كما ترى فسوف أحرص على ألا أنهج نهجهم . إنى أستخرج الحركات التى ألاحظها من الحياة ولكننى لا أفرضها ولا أصطنعها ، حتى إذا ألجأنى الأمر وأنا أشتغل بموضوع ما أن أطلب من المثال أن يتخذ وضعاً معينا ثابتاً فانى أشير اليه بأن يأخذ ذلك الوضع متحاشيا جهدى أن أمسه لأضعه فى الموضع المطلوب ، لأنى لا أنقل إلا ما تقدمه لى الحقيقة على الأثر . إنى أطيع الطبيعة فى كل شىء ، ولا أحاول قط أن أسيطر عليها ، وكل ما تصبو اليه النفس هو أن أكون عبدها الوفى الأمين » ، فأجبته فى شىء من الخبث والمداورة « ومع ذلك فأنت لا تبرز الطبيعة فى أعمالك بنصها وفصها » فتوقف قليلا وهو ممسك باللفائف المبللة ثم أجابنى وهو مقطب الأسارير .

— نعم إنى أبرزها بنصها وفصها

— ولكنك تضطر إلى تغيير ...

— لا أغير منها قتيلا

— ولكن البرهان على أنك تغير منها هو أن السبيكة لا تعطى من التأثير مثلما يعطيه عمل يدك بحال من الأحوال

ففكر لحظة ثم قال :

هذا حق ! لأن السبيكة أقل صدقا مما تطبعه يدى فى الطين أو تحفره فى الحجر يكاد يكون مستحيلا على أى مثال أن يحتفظ بوضع حى طيلة الوقت الذى يلزم لعمل سبيكة منه

ولكنى أحتفظ بجملة الوضع بمخيلتى وأصر على أن يتطابق المثال على ما وعته مخيلتى من ذلك الوضع . وأكثر من ذلك أن السبيكة لا تظهر إلا الظهر الخارجى ، ولكنى أظهر بجانب ذلك الروح التى هى بلا ريب جزء من الطبيعة أيضاً . إنى أرى الحقيقة كاملة ولا أقصر نفسى على رؤية المظهر الخارجى . إنى أبالغ فى إظهار الخطوط التى تعبر أحسن تعبير عن الحالة النفسية التى أتولى تفسيرها »

وكان يرينى وهو يتكلم تمثالا من أروع تماثيله قائماً على منصة قريبة ، هو تمثال لشاب راكع رافع ذراعيه المتوسلتين إلى السماء كأنما تنهش كيانه حيات الألم ، جسمه مائل إلى الوراء ، وصدره ناهد وحلقه متوتر من اليأس ، أما يداه فممدودتان إلى مخلوق وهمى تتوقان إلى إمساكه ؛ ثم قال لى :

« انظر ، لقد أوضحت انتفاخ العضلات التى تفصح عن الألم ، فهنا وهنا وهناك قد غاليت فى توتير أربطة العضلات التى تدل على تدفق الصلاة وحرارتها » وبعد ذلك أشار إلى أقوى وأبرز ما بالتمثال من أجزاء ، وهنا صحت به متهكماً :

« لقد أصبت منك منمزا يا أستاذى . تقول بنفسك إنك تفصح ، وتزيد ، وتبالغ . . فترى من ذلك إذن أنك غيرت من الطبيعة » فأخذ يضحك من عنادى ويقول :

« أبداً ، أنا لم أغير منها شيئاً ، وعلى فرض أنى فعلت ذلك فانى لم أكن أتوقعه وقتذاك ، فالاحساس الذى سيطر على مشاعرى وقتئذ أرانى الطبيعة كما نقلتها . فاذا ما أردت تنقيح ما رأيت وجعله أكثر جمالا لها أنتجت شيئا طيبا » وبعد برهة عاود حديثه قائلا :

« إنى أوافقك على أن الفنان لا يرى الطبيعة كما يراها السوق

(١) البنات لعب الأطفال (العرايس)